المحاضرة الافتتاحية

الدراسات اليونانية واللاتينية من الموسوعية إلى الدراسة البينية

أ .د . محمد حمدى إبراهيم
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية
كلية الآداب - جامعة لقاهرة

كانت الفلسفة عند الإغريق هى أم العلوم، ولم يكن هناك أى فصل بينها وبين أى علم آخر طوال العصر الكلاسى، وكان الفلاسفة علماء بقدر ما كان العلماء فلاسفة، تماماً كما كان الحال لدى علماء المسلمين "ابن سينا. وابن رشد . والفارابى" .وكانت الرياضيات تخصصاً وثيق الصلة بدراسة الفلسفة، وليس أدل على ذلك من الشعار الذى تمت كتابته على باب مدرسة افلاطون "الأكاديمية" وهو: "لا يدخل هنا من لا يعرف الهندسة: "Ageômetrêtos mêdeis eisetô".

أما الفيلسوف ارسطو فكان أول فيلسوف يزاوج بالفعل بين العلم والفلسفة فى شخصه، كما كان رائداً من رواد الدراسة الموسوعية الأوائل، حيث إنه لم يترك ميداناً تقريباً دون أن يؤلف فيه مقالاً أو يكتب فيه كتاباً: فلقد كتب فى الفلسفة وفى المنطق، وكتب فى النقد الأدبى (فن الشعر ـ فن الريتوريقا)، وكتب فى علم الحيوان، وفى الفلك، وفى الموسيقى، وفى الرياضات. وكانت الدراسة الموسوعية تقتضى أن يتبحر شخص واحد فى كافة الميادين، وألا يترك ميداناً للمعرفة بغير أن يدلى فيه بدلوه ـ كما نقول ـ كذلك كان ارسطو أول فيلسوف معروف يقتنى مكتبة عامرة والمؤلفات والدراسات، صارت أنموذجاً يحتذى من بعده، وتوارثها تلاميذه بعد رحيله، كذلك أرسى أرسطو قواعد البحث العلمى المنظم على أسس من الدراسة المنهجية والاطلاع الحر المرشد. ولا أدل على نجاح منهج ارسطو من أن ثيوفراستوس، تلميذه وخليفته فى رئاسة مدرسة الليكيون، كان أول باحث يرتاد

ميدان علم النبات، رغم تبحره فى كافة الميادين الأخرى التى نبغ فيها من قبل أستاذه ارسطو.

وعندما حلت الحضارة الهيلّنستية محل الحضارة الهيلّينية بعد فتوحات الإسكندر الاكبر ونزوح أفواج من الإغريق إلى ممالك الشرق القديمة للاستيطان، وبعد اختلاط الحضارة الهيلّينية القديمة بحضارات الشرق القديمة، انفتح عالم بأسره من المعارف والعلوم أمام الباحثين الإغريق، فانكبوا على هذه المعارف الجديدة يغترفون منها وينهلون من كنوزها، ويؤلفون مؤلفات موسوعية تتميز بالشمول والإحاطة. ولقد أرسى العصر الهيلّنستى أسس الدراسة الموسوعية كأفضل ما يكون، ومضى قدماً بها مطوراً ومحسناً بعد أن تسلم لبنتها الأولى من المعلم الأول الفيلسوف ارسطو رائد البحث العلمى. وكان الأدباء فى عصر الإسكندرية - أزهى عصور الحضارة الهيلّنستية - علماء وكان العلماء أدباء، إذ لم يعد هناك فرق يذكر فى ذلك العصر بين العلم والأدب رغم السيادة الواضحة التى كانت للأدب والدراسات الأدبية لدى جمهور المثقفين فيها: فها هو العالم إراتوسثينيس، مؤسس علم الجغرافيا والباحث النابه فى الرياضيات وغيرها من العلوم، يؤلف إبجرامات رصينة، وها هو أراتوس، عالم الفلك الشهير، يدون خلاصة خبرته وعلمه فى قصيدة رائعة بعنوان *"الظواهر الفلكية"* وها هو نيكاندروس، الطبيب العالم، ينظم قصيدتين متميزتين عن أضداد السموم، وغيرهم كثيرون.

ولو أننا شئنا أن نضرب مثلاً دالاً على العلماء الموسوعيين فى عصر الإسكندرية، لما وجدنا أفضل من اثنين يليان فى المرتبة إراتوسثينيس الذى عرف بين أقرانه فى الموسيون بصاحب *الفنون الخمسة* ho Pentathlos، كما عُرف بلقب *"الثانى"* to Bêta أى الثانى مباشرة فى أى فرع أو مجال من مجالات المعرفة بعد مؤسسه، وأعنى بهما أرستوفانيس البيزنطى الذى ترك لنا كما هائلاً فائق النوعية من الدراسات الأدبية الضافية، وديديموس Didymos العالم الموسوعى الذى اشتهر بأنه صاحب *الأحشاء الحديدية* Khalkenteros، لكثرة جلده ولوفرة مؤلفاته ولسعة

معلوماته وتبحره فى كافة فروع الدراسة والبحث العلمى.

وإلى جانب هذه الشخصيات الفذة لطائفة من العلماء الموسوعيين، فإن نظام التعليم الهيلّنستى فى ذلك العصر الزاهر كان يقوم على منهج يعتمد على كل من الدراسة الأدبية والعلمية فى آن واحد. وكان هذا المنهج ـ كما نستدل من تسميته ـ منهجاً يهدف إلى دراسة أو تعليم دائرى (= موسوعى) enkyklios paideia، كان الطلاب من خلاله يدرسون ثلاث مواد أدبية، هى: الدياليكتيكا، الريتوريقا، النحو، وأربع مواد علمية (أى فى نطاق العلوم science)، هى: الفلك، الموسيقى، الهندسة، الحساب.

كانت هذه باختصار ملامح الدراسة الموسوعية التى اهتدى إليها إغريق العصر الهيلنستى ليسلحوا بها طلابهم بسلاح فعال، يضمن لهم الحفاظ على هويتهم الهيلّينية وسط محيط مغاير لها حيناً أو معاد حيناً آخر، ونعنى به محيط الحضارات الشرقية التى استوطنوا بلادها وظفروا فيها بموقع السيادة. ولقد ظل هذا الاتجاه الموسوعى سائداً بصورة أو بأخرى طوال العصور الوسطى حتى عصر النهضة، القائم على التنوير وبعث التراث الكلاسى بعد تطويره وتعديله ليناسب ظروف العصر. وفى عصر النهضة نصادف شخصيات فذة تمثل طراز العالم الموسوعى كأوضح ما يكون، مثل ليوناردو دافنشى الإيطالى الذى كان عالماً وفناناً ومبتكراً فى ذات الوقت، والذى قدم الدليل على نبوغه الساطع فى مختلف الميادين كما لو كان متخصصاً فى كل منها على حدة.

ولم يعرف العالم ما نطلق عليه اسم التخصص الدقيق ـ لو كان تصورى هذا صحيحاً ـ إلا مع مطلع القرن التاسع عشر، حينما تراكم قدر هائل من المعرفة بمقاييس ذلك العصر، وحينما تقدم البحث العلمى وأسفر تقدمه عن ظهور النظريات العلمية، وهى نظريات كانت ثمرة لما أنتجته عقول العلماء ونتيجة لما تفتقت عنه قرائحهم، بعد أن تعمقوا لسنوات طويلة فى دراسة جزئية محددة من جزئيات العلم، فهرعوا يعلنون للعالم عن رؤية شاملة اعتقدوا أنهم توصلوا إليها

واكتسبوها من خلال منظورهم الجزئى، وكذا من خلال انتقالهم بما يشبه التعميم من الظواهر الجزئية إلى الرؤية الكلية الشمولية؛ مع أن ما قاموا بدراسته فى الواقع لا يعدو كونه شريحة مصغرة، ومع أن ما اعتمدوا عليه من معرفة كان قليلاً جداً بالقياس إلى ما عرفناه بعد زوال عصرهم. وهو ما يطلق عليه البعض فى أيامنا هذه أنهم انتقلوا **من الذرة إلى المجرة او من الكيان الأصغر للكيان الأكبر**: from the mikrokosmos to the makrokosmos . ومن الأمثلة الدالة على فكر علماء هذا القرن نجد دارون ونظريته عن النشوء والارتقاء The Origin of Species، **وفرويد** ونظريته فى علم النفس التحليلى، وماركس ونظريته فى **"فائض القيمة"** الواردة فى كتابه "راس المال".

وها نحن عوداً على بدء نعود مرة أخرى فى ختام القرن العشرين، لنكشف قصور هذه النظريات التى كانت ـ يوماً ما ـ أشهر من أن تراجع أو تناقش، ونتثبت من تهافت النتائج التى توصلت إليها، لأنها قامت فوق أساس من التخصص الدقيق بالنسبة لما كان سائداً قبلها من منهج للدراسة الموسوعية. ونحن -رغم ذلك- لا نزعم أن الدراسة الموسوعية كانت أدق وأشمل، فالحق أنها أيضاً كانت عرضة للخطأ فى كل من التصور والاستنتاج، وأنها كانت مبنية على رؤى أحادية فى غالبها الأعم. وبالتالى فقد انهارت منذ بداية القرن العشرين كل النظريات التى قدمها رواد العلم طوال القرن التاسع عشر، وغدت الآن مجرد تاريخ للعلم ندرسه ولكن لا نعتمد على صحته أو نعول على دقته، ولم تعد بحال من الأحوال برهاناً على الدقة العلمية أو الصحة من حيث الأدوات والوسائل.

وبعد ثورة الاتصالات والتقدم العلمى الهائل فى تكنولوجيا المعلومات، شهد عالمنا المعاصر تراكماً معرفياً لم يسبق له مثيل أدى إلى طفرة علمية هائلة بكل المقاييس، ولم يعد هناك فى عصرنا الحاضر عالم واحد، مهما سمت معرفته أو بلغت عبقريته، قادراً على الإلمام بدقائق كل شئ فى تخصصه، بل ـ على العكس من ذلك ـ غدا عاجزاً عن ملاحقة الجديد الذى ينشر كل يوم ـ بل ربما كل ساعة ـ

فى مجال بحثه، ولم يعد بوسعه أن يتعرف على الخيوط التى تربط بين تخصصه الدقيق وبين التخصصات الأخرى ذات الصلة. وإزاء تشابك الصلات وتداخلها، وفى ظل هذا الانفجار المعرفى المذهل زالت الفروق المصطنعة التى اعتاد الباحثون ـ طوال القرن العشرين ـ أن يقيموها بين التخصصات، كما انهارت الجدران التى ما فتأوا يقيمونها ويشيدونها بين كل قسم علمى والقسم المجاور له، الأمر الذى جعل غالبية الباحثين تتقوقع أو تنعزل وتبالغ فى تفتيت الموضوعات البحثية، وكأنهم من محبى علم تكنولوجيا النانو Nano - technology الذى يبحث فى الكائنات فائقة الصغر.

ثم بدأت حركة البحث العلمى فى الانتقال من **التخصصات الثنائية** dual systems التى كانت تقوم على استحياء فى النصف الثانى من القرن العشرين بين قسم وقسم آخر فى ذات الكلية، إلى تخصصات أخرى استجدت عرفت باسم **الدراسات البينية** inter - disciplinary studies، وهى تخصصات يتم الربط فيها بين تخصصات كبرى على مستوى الكلية أو المعهد، مثل تخصص الهندسة الطبية الذى يجمع بين تخصص الهندسة وتخصص الطب. وها هى الساحة تشهد الآن النقلة النوعية الكبرى التى عرفت تحت اسم **التخصصات المتعددة** multi - disciplinary studies ، وهى دراسات تقوم على الجمع بين عدد كبير من التخصصات الكبرى فى آن واحد، مثل تخصص **التكنولوجيا الحيوية** الذى تشارك فيه عدة تخصصات أو كليات، هى: الطب، الصيدلة، الزراعة، الطب البيطرى، العلوم؛ ومثل **علوم البيئة وعلوم الحاسب الآلى** وغيرها.

والآن ما هى الدلالة التى يمكن استنتاجها والخروج بها من هذا التطور المذهل الذى قام على منهج **الدراسة البينية**؟ إنه يعنى ببساطة وبغير تشدق بالألفاظ أننا نعود من جديد إلى عصر مشابه **لعصر الدراسة الموسوعية** الذى ازدهر قديماً، ولكن بمفهوم جديد وفلسفة مختلفة، مفهوم يتناسب مع عصرنا ومع التراكم المعرفى الهائل الذى نحيا الآن فى ظله. فقديماً كانت **المعرفة الموسوعية** تقوم على

أكتاف العالم الفرد المتميز الذى يتبحر ويدرس مختلف الميادين وحده، والذى ينقب فى بطون الكتب ليستخرج منها المعلومات ويعيد صياغتها بفكره الأحادى أيا كانت قدرته. أما الدراسة البينية فتقوم الآن على تآزر الفريق البحثى منذ البدء، وعلى عمل الفريق المتعاون فى البحث، من أجل التوصل إلى الصورة المتكاملة التى تكاد تخلو من احتمالات الخطأ قدر الإمكان، الصورة التى تؤدى لإتمام النقص ورأب الصدع والتوصل إلى التكامل المعرفى المنشود. ففى ظل الدراسة البينية لا فضل لشخص بمفرده مهما كان سامياً شهيراً، بل الفضل لعمل الفريق المتآزر الذى يفكر أفراده معاً فى المشكلة، والذى يكمل فكر كل واحد منهم فكر زملائه بغير استعلاء ولا تكبر، والذى يلفت كل واحد منهم نظر باقى زملائه إلى خلل النظرة الفردية الأحادية، ويجعل كل واحد فيهم يقتنع برجحان كفة النظرة المتكاملة التى تسهم فى بلورتها كل العقول تحت شعار الكل فى واحد، على النظرة الأحادية أو الفردية مهما سما شأن صاحبها.

فإذا كان هذا المنهج الجديد من الدراسة البينية هو نبراسنا الآن ومصباحنا الهادى، الذى نتوسل به إلى التقليل من احتمالات الخطأ وإلى الاستزادة من فرص الصواب، فإن السؤال الذى يطرح نفسه الآن على مؤتمرنا هذا بوجه خاص - بعد هذه الإطلالة السريعة على رحلة البحث العلمى منذ قدامى الإغريق حتى نهاية القرن العشرين - هو بالأحرى : **ما هو مستقبل الدراسات اليونانية واللاتينية فى ظل توجهات الدراسة البينية؟ ترى هل سيضمحل دور ها ام ستزداد الفرص المتاحة امامها؟**

ولو أننا لجأنا لنوع من الاجتهاد الشخصى القائم على الاستنتاج المنطقى، من واقع ما نراه سائداً اليوم بين ظهرانينا، لجاز لنا أن نقول إن الفرص المتاحة سوف تزداد، وإن الحاجة إلى الكلاسيات سوف تنمو وتتجدد، لأن الدراسات اليونانية واللاتينية ليست نتاجاً لسواها من الدراسات بقدر ما هى مفتاح لغيرها من ميادين البحث والدراسة فى العلوم أو فى الآداب سواءً بسواء. فالدراسات الكلاسية هى الدراسات التى قامت على أكتافها حركة التنوير فى أوروبا والتى كانت أساساً

لعصر النهضة، أو عصر الإحياء الذى أسفر عن ظهور الحضارة الأوروبية الحديثة. ولا يوجد فرع من فروع العلم أو الأدب ليست له جذور كلاسية ضاربة فى القدم أو إرهاصات تمثل الفوزة الأولى لأساس علمى راسخ متين، وبالتالى فكلما تعمق الباحثون الجدد فى مجالهم كلما عثروا فى الأغوار على الجذور القديمة، وكلما وجدوا ما ينير لهم الطريق وما يكشف أمامهم الغموض، وكلما عثروا على ما يكافئ اجتهادهم ويروى ظمأهم.

إن الكلاسيات هى المفتاح السحرى الذى يتيح للباحثين فتح أبواب المعارف المستغلقة، وليس أدل على ذلك من أن أى باحث غير كلاسى يسعد كل السعادة لمجرد أنه عرف الأصل اللغوى أو التسلسل المعرفى الكلاسى لأية معلومة، أو حتى لأى لفظ يستخدمه الآن كمصطلح حديث، وما هذه السعادة من جانبه سوى دليل على امتلاكه لمعرفة كانت غائبة عن ذهنه، تمكنه من الوقوف على المصدر العلمى الأصيل. فما بالنا به لو وجد تفسير أو شرحاً لموضوع بحثه لم تفطن إليه المراجع الحديثة إما بسبب قصور أو من جراء تجاهل؟!!!

وفى حقيقة الأمر، فإن **الدراسات اليونانية واللاتينية** ترتبط الآن بالفعل بتخصصات عديدة يمكن أن تكوّن معها دراسات **ثنائية التخصص**، مثل: الفلسفة، التاريخ، الأدب (وخاصة الدراما)، اللغات الأوروبية، النقد الأدبى. وهناك أيضاً تخصصات أخرى فى مجال العلوم الإنسانية يمكن أن تسهم فيها **الكلاسيات**، مثل: الجغرافيا، وعلم النفس وعلوم المكتبات والقانون والاقتصاد. وفضلاً عن ذلك فهناك تخصصات فى مجال العلوم الأساسية يمكن أن ترتبط مع **الكلاسيات** فى دراسات مشتركة، مثل: الطب، علم النبات علم الحيوان، علم الحشرات، علم الطبيعة، علم الكيمياء. فكل تخصص من التخصصات سالفة الذكر، سواء فى الأدب واللغات أو فى الفنون أو فى العلوم البحته، يتطلب رؤية الباحث الكلاسى الذى يمكن أن يكون عضواً فى الفريق البحثى فى نطاق الدراسة البينية أو الدراسة ذات الطبيعة القائمة على تعدد التخصصات. وبالتالى فإن إسهام الباحث الكلاسى

سوف يكون مطلوباً بإلحاح، سواء فى التخصصات الثنائية أو فى مجال الدراسة البينية أو حتى المتعددة.

فلا مندوحة إذن فى ظل التوجهات البحثية الحديثة من توافر التكامل وشمول الرؤية من جانب، وضمان التعمق والإحاطة من جانب آخر، وهما أمران متلازمان رغم ما يبدو من تعارض ظاهرى بينهما، كما أنهما أمران أتصور أنهما متوافران لدى عدد لا بأس به من المتخصصين فى الدراسات اليونانية واللاتينية، على الأقل بحكم طبيعة الدراسة القائمة على الإحاطة والشمول فى آن واحد. والتكامل ـ فى تصورى ـ ينبع من الإيمان بأن المعرفة الحقة لم تعد الآن متاحة لفرد واحد مهما سما فكره أو تشعبت معارفه، كما أنه ينبع بالمثل من الاعتقاد بأفضلية عمل الفريق على ما سواه من الاجتهادات الفردية أو التصورات الأحادية، وهو الأمر الذى أكده عالمان مصريان شهيران، هما احمد زويل ومجدى يعقوب فى كل أحاديثهما وتعليقاتهما. والتكامل أيضاً مطلب لا محيص عنه، فى ظل التراكم المعرفى الهائل الذى نشهده كل يوم بأعيننا دون أن نستوعب دقائقه أو نحيط علماً بدلالاته،الأمر الذى يدفعنا إلى التعاون مع زملائنا الباحثين ونحن راضون مغتبطون، ويحدو بنا إلى أن نضع أيدينا فى أيديهم بغية توفير الوقت الثمين للباحثين وتخصيصه لما هو أجدى وأنفع.

أما التعمق، فهو نتاج لحرص كل عالم وباحث على الإحاطة علماً بأدق دقائق تخصصه وخفاياه، حتى إذا ما جلس مع زملائه من أعضاء الفريق البحثى متحلقين للبحث ومتحفزين للدراسة، كان لديه القول الفصل فى مجال تخصصه الدقيق، وهو قول يقبله باقى أفراد الفريق بثقة تامة وبغير تشكك أو ريبة، لأنهم يعلمون حق العلم مدى الجهد الذى بذله فى سبيل التوصل إليه، ومدى الصدق العلمى الذى يلتزم به تجاههم، ولأنه سيقبل بالمثل آراءهم التى يعتبرون هم العمدة فيها بنفس الثقة وذات الاطمئنان.

وختاماً ... فإن آفاق التعاون التى ستخلقها الدراسة البينية رحبة وبلا

حدود، كما أن المهام التى ستلقى على عاتق من ستسعده الظروف منا ـ نحن الباحثين ـ للمشاركة فى مجالات هذه الدراسة مهام جد ثقيلة .. ولكن ما يبعث على السعادة هو أننا سنتشارك بوصفنا كوكبة من العلماء يغتبطون كل الاغتباط بالتعاون العلمى المشترك. فالحقيقة هى غاية العالم، كما أن قلوبٌ العلماءِ ذوى الفضل تتسع للكون كله، ومشاعرهم مؤسسة أو قائمة على الحب الغامر لبنى جنسهم لا لبنى جلدتهم وحدهم، خاصة إذا كان هؤلاء من ذوى الفكر الراجح والعقل النبيل. ولقد صدق المعلم الأول، الفيلسوف ارسطو، حينما عبر عن محبته للحقيقة وجعلها فوق كل اعتبار شخصى، حينما قال قولته المشهورة: "**احب الحق واحب افلاطون. ولكن الحق أحب إلى من افلاطون**".